الأديب الجبار

مجلة « السلام » التطوانية
السنة الأولى - العدد 6 - 1933

تتزعم مصر اليوم الأدب العربي نظرا لما في نهضتها من حيوية وإنتاج، ومن الخير لنا نحن فتيان المغرب أن نتعمق في تفهم هذه النهضة، وندرس مدارسها دراسة تثير أمامنا السبيل لنبعث في محيطنا قوة وإدراكا لما في الحياة الأدبية الفسيحة من جمال ونور، وسأتحدث للقراء هذا الشهر عن أديب يحمل لواء التجديد المنتج كون لنفسه مدرسة من المدارس الأدبية التي خطت بأدبنا العربي آفاقا، واتصلت بأعمق ما في الحياة من ينابيع الفكر وصور النفس، ذلك الأديب هو الكاتب الأكبر عباس محمود العقاد.

العقاد اسم كبير يطوي خلاصة آراء الفلسفة المعاصرة، والنزعة الأدبية الحسية، لست أدري كيف أقدمه إلى القراء، وكيف أمهد للكلام على عبقريته ونبوغه، فليست الألفاظ دائما بالمعبرة عن هذه المعاني التي نشعر بها ونلمسها في سويداء قلوبنا، ثم نعجز أن نفصح عنها بلساننا ونصورها بأقلامنا. فكل كتاباته وأشعاره وأحاديثه تثير في النفس تفكيرا عميقا، يخلو إليه المرء ساعات طوالا ويتناسى في ظله الوريف هذه الآراء السطحية التي تعرض أمامه فلا تتجه به إلى غاية سوى قضاء حاجة ماسة أو ملء الذهن بفائدة تعلم ولا تهضم.

فالعقاد الأديب جبار قوى يخضع أمامه كل فكر، يوحي إليك وأنت تقرأه هذه الأنوار التي تشع لك في ظلمة، فتبتسم لك الحياة ابتسامة حلوة، ساعتها يوم، ويومها شهر، لأن فكرتها مستمدة من أعمق ما في الروح البشرية من نزعات قوية ثابتة. فلا تقع عيناك على

قصيدة له حتى يجردك مما حولك من الاعتبارات الضيقة ليصلك بالكون الواسع؛ فهذه قصيدته التي عنوانها « الكون والحياة » لا تكاد تقرأها حتى تراه يسائلك في عمق وغور سحيقين أيهما أكبر: الكون أم الحياة الإنسانية ... ؟ إن الحياة إذ لم تكن لها غاية بعيدة موصولة بالغاية التي يسعى إليها الكون برمته، فهى ولا ريب أصغر من أن تقاس إليه أو يفاضل بينها وبينه؛ وقد كان يكفينا على هذا الفرض كرتنا الأرضية وحدها، أو نظام واحد من أنظمة الشموس التي لا عداد لها، وإذا كانت الحياة الإنسانية هى الحس الشاعر المفرد في الوجود فلم لم يكن من الإحساس القدر الكافي لمعرفة الوجود حق المعرفة، ولم لم يتناسب العارف والمعروف أو يتقاربا؟ ألا نفهم من ذلك أنه لا بد في الوجود من قدرة تعرفه المعرفة الخليقة به؟

هذا الأديب العميق الفكر عصامى بكل ما في العصامية من معاني، فلنتحدث ونحن في أول استعراض - إن صح أن تسمى هذه الكلمة باستعراض - لفكره وأسلوبه عن عهد طفولته ونشأته المدرسية، وعن العوامل التي اتجهت به إلى أدب الفكر، فأصبح زعيما من زعمائه الأفذاذ، فهو في ذلك يقول لقراء مجلتنا « السلام » :

« كنت أجد عند والدي كتبا كثيرة مثل كتاب « المستظرف من كل فن مستطرف » وكتاب « أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس » ، ثم إني اعتكفت على مطالعة « ألف ليلة وليلة » فنزعت بي الرغبة إلا أن أقول شعرا من نظمي لأنشده في مواقف المبارزة محاكاة لأبطال الرواية إذ كنا نؤلف في أيام الدراسة جيوشا تمثل المصريين والانجليز والدراويش، فكنت لا أستريح إلى أن أعبر بشعر ألف ليلة وأجريه على لساني، فكان هذا من أول البواعث لي على نظم الشعر؛ وكذالك رغبت في الإشادة بالعلوم التي كنت أتعلمها في المدرسة لأول عهدي بها، فنظمت أبياتا في هذا المعنى وأذكر منها على سبيل المثال الآن:

علم الحساب له مزايا جمة ... وبها يزيد المرء في العرفان

والنحو قنطرة العلوم جميعها ومبين غامضها وزين لسان
وكذلك الجغرافيا تهدي الفتى لمسالك البلدان والوديان
وتعلم القرآن واحفظ درسه فالنفع كل النفع في القرآن

إلى أمثال هذه الأشعار؛ ولما أنس والدي الميل مني إلى القراءة وقول الشعر أخذني إلى مجلس العالم الأسواني الجليل المغفور له الشيخ أحمد الجداوي، وكان يقرأ مقامات الحريري بمجلسه العامر، ويطارح الأدباء والمدرسين والقضاة الشرعيين الأشعار الكثيرة، فاستفدت من حضوري لهذا المجلس فوائد شتى.

وكان هذا كله من أسباب اشتغالي بالأدب العربي، وقصرت في أول الأمر حتى زارنا في المدرسة بعض كبار السائحين الانجليز وذهبنا نرد لهم الزيارة في فندقهم، فطلبوا منا عنواننا وأرسلوا إلينا بعد عودتهم إلى بلدانهم كتبا انجليزية على سبيل الهدية والتذكار، فكان من نصيبي أنا كتاب الثورة الافرنسية للأديب الكبير كرليل، ولست أدري لماذا اختاروه لي لأنه كان عسير اللغة بالقياس إلى درجتي يومئذ من التعليم، فلم أقرأه إلا بعد سنوات، ولكنه نبهني إلى قراءة الانجليزية، فشرعت فيها واستفدت منها الفائدة الكبرى التي لا تنسى » .

ولم يطل عهده بالدراسة النظامية، فإنه بعد أن تخرج من المدرسة الابتدائية بأسوان بلدته سنة 1904 لم يتلق غير أبواب محددة في الكهرباء والطبيعة حضرهما بمدرسة الصنائع والفنون، ثم زاول بعد ذلك التدريس، وتوظف في وظائف رسمية كان يستقيل منها واحدة بعد أخرى نفورا - كما يقول الأستاذ - من قيودها الثقيلة وتكاليفها الغثة.

وسألته هل كان يطمع وهو صغير في هذه المنزلة الأدبية التي وصل إليها، فأجابني على الفور: « بل كنت أميل إلى أكثر منها » .

فيا لها من نفس جبارة من عهد طفولتها إلى يوم سطوتها.

وأروم بعد هذا أن أتحدث قليلا عن الأستاذ العقاد بمدرسة من مدارس الأدب العربي في نهضتنا الحالية فأحاول أن أوضحها من ناحيتين: الفكرة أو الغاية والأسلوب.

« سعيي الأكبر متجه إلى تعويد الشرقيين أن يفهموا إدراك الفنون وإدراك الجمال. في مظاهر الحياة مطلب لا تنهض أمة بغير التوخي عليه، وأزيد ذلك تفسيرا فأقول: إن الأمم التي تطلب المنافع وحدها إنما تسوقها الضرورة كما يساق الجائع إلى إشباع معدته، والعاري إلى وقاية جسمه، أما التي تحفل بالفنون وتطلب متعة الجمال في مظاهره النفسية والحسية فهى لا تساق للضرورة بل تملك حق الاختيار والتمييز، وهذا هو أكبر عنصر من عناصر الحرية، فلن تبلغ أمة رجاءها من الحرية السياسية حتى تعرف الحرية قبل ذلك في أذواقها الفنية » .

بهذا الجواب القيم الممتلئ قوة وحياة أجابني الأستاذ العقاد عندما سألته عن رسالته التي يصبو إلى تأديتها لمواطنيه قراء العربية. فلم أكد أتلفظ بسؤالي حتى انطلق الأستاذ الكبير يتحدث بما يشعر به وعما يلامس قلبه العامر دون أن يتوقف كأنه استعد للجواب عليه منذ زمان، فخيل إلى كأن الأستاذ فكرة تتحدث عن نفسها وتتعمق في صميم الحياة لتؤدى رسالتها المثلى، في ثقة وعزم، وتفسح طريق النور وسبيل الخير والجمال، أمام أفراد استعبدتهم المادة، وقضت عليهم المخاوف الوهمية، فأصبحوا يوجسون خيفة من كل صنم، ويتراجعون أمام كل شبح، لا يؤمنون إلا بالملموس، ولا يحفلون بما في الفنون من جمال قدسي وروح خالد.

فالأستاذ العقاد شعلة من فكر وروح، تضيء لنا نحن معشر الشرقيين ما نحن فيه من ظلمة حالكة، وتزيل عنا هذه الأصداء، التي باعدت بيننا وبين مظاهر الجمال في الحياة، منذ استسلمنا لحياة تسيطر عليها الاعتبارات المادية وتقاس بمقاييس ملموسة.

وفي الحق أن الأستاذ قد أدى رسالته كما يصبو، ولا نعرف صاحب رسالة أدبية استطاع في أمد قصير أن تنضج فكرته في وسطه فيجني شهرتها، وهو لم يناهز الأربعين إلا

بسنوات؛ فهذا الأدب العربي المعاصر قد تطور تطورا خطيرا بعد الحرب العالمية، واتصل أشد الاتصال بالحياة، ولامسها وعبر عنها أفصح تعبير بفضل زعماء الأدب المصريين كالعقاد وطه حسين وهيكل.

وندرك فكرة المدرسة العقادية إدراكا صحيحا منتجا إذا اتصلنا بالثقافة السكسونية، وتلمسنا نواحيها، وتذوقنا جمالها لكى نكون من مقاييسها مقاييسنا، ومن نورها نور ذوقنا؛ فالأستاذ العقاد جد شغوف بالأدب الانجليزي يعتبره أصدق الآداب الأوربية، ويتحدث إليك في ذلك وهو مطمئن إلى فكرته تمام الاطمئنان، فيقول: أدب الانجليز لا شك في اعتقادي أنه خير الآداب الغربية على الإطلاق على الرغم من الكراهة التي أشعر بها نحو الاستعمار البريطاني فهو عندي أخبث أنواع الاستعمار.

وتسائله هل يمثل الأدب الانجليزي العواطف الإنسانية خير تمثيل، فلا يتردد أن يقول في لهجة صادقة:

« نعم. يمثلها خير تمثيل، لأنه يمثل أمة تجمع بين القدرة العملية وسعة التصور والخيال، وهما العنصران اللازمان لمعرفة الحياة ومرامي ما فيها من تجارب الواقع المحسوس ومن تصورات العقل المحبوبة إلى النفس، فالانجليز كما يعرفهم كل من عاشرهم ودرس آدابهم قوم عمليون خياليون في وقت واحد » .

ثم لننتقل إلى أسلوب المدرسة العقادية، فالأسلوب أبرز ما في الأدب من صورة، وأدلها على تمكن الفكرة وارتباطها بنفس الأديب، وهو في الأدب لا يبرز انتهاكه في سبيل الغاية، بل إن الأسلوب جزء مقابل للفكرة، لن تكون الإجادة والعبقرية إلا في السيطرة عليها سيطرة قوية حسية، فلن تهتم بالفكرة قبل الأسلوب، ولا بالأسلوب قبل الفكرة، إذ في مزجهما مزجا صادقا تتكون شخصية الأديب ومقدرته.

وهنا أستطيع وقد تابعت ما كتبه العقاد نثرا وشعرا، أن أزعم أن أسلوبه لا يتصل بالطريقة الوجدانية، وأن العقاد لم يسع قط إلى اتخاذ هذه الطريقة في ما سطر، فهو دائما

يكتب عن فكر، ودائما يستوفي صور الحياة بعمق تفكيره، ويستولي إنتاجه الخصب القوى على كثير من الأفراد الذين يخيل إليهم كأن الأدب ينحصر في طريقة العاطفة التي لست أدري بما أسميها إلا بأنها تمثل صبيانية المرء أكثر مما تمثل رجولته.

ولك أن تصف أسلوب العقاد بأنه فخم التركيب، متين العبارة، قوى الحجة، مرتبط المعنى، قليل الحشو، لك أن تصفه بهذا وأكثر منه، ولكنك لن تستطيع أن تكيف بكلماتك أسلوب العقاد للقارئ من غير أن يتصل القارئ به اتصال العقل بالحياة، فهو يكتب سواء النثر أو الشعر ليزيدك اتصالا بالحياة، وليعبر بك جسر الأدب الصبياني، إلى أدب الروح في معينها العذب ورحيقها السلسبيل.

وليس يعسر عليك أن تلمس مزايا الطريقة العقادية في كل ما كتبه الأستاذ، فهو جلى واضح، لا جلاء ووضوح ألفاظه والتراكيب، ولكن جلاء ووضوح الفكرة وتناسق المعاني وأنت تنحدر من أول مقاله أو كتابه إلى ختامه، فهنا وحدة تثير عجبك، وتأخذ حظا من وقتك، تلمسها وتراها في كل ما يخطه الأستاذ الكبير على الصحف الصماء، فتصبح ناطقة بأفصح ما تنطق به العقول النيرة.

وأسلوبه في النقد والمناقشة جريء لا ينبئ إلا عن فكر قوى، لصاحبه كل الثقة بنفسه ويتكلم عنه يقول:

« وخطتي في المناقشة أن أعمد إلى أقوى الحجج بداءة فأجتهد في تقويضها ثم أقفوها بأضعف الحجج، وقد أعود إلى ما فيه مسالك من القوة، وربما كانت في هذه الخطة مفاجأة للقارئ، ولكنها لا تخلو - كما شاهدت بالتجربة - من تأثيرها المحمود » .

ولنتحدث إلى الأستاذ الكبير عن هذه النهضة العربية التي يقود اليوم مدرسة من أقوى مدارسها، لنرى كيف ينظر أستاذنا إلى هذه الحقبة من تاريخ أدبنا، وكيف يعكس عليها منظار عقله فيرينا خطواتها وما فيها من جرأة وتردد سهل. وهل اتجهت نهضتنا العربية اتجاها صادقا نحو النضوج؟ وهل هناك من ملاحظات يبديها المفكر على سير هذه

النهضة؟ هذا ما يجيب عنه الأستاذ العقاد عندما أملى على:

« أعتقد أنها اتجهت نحو الكمال وسارت في طريق الكمال، وكل ما ألاحظه عليها إلى الآن أنها قليلة التنوع، وأنها ضيقة الدائرة، وهذا عيب نرجو أن يزول متى بلغ الشرق حظه المهضوم من التقدم وسعة آفاق الحياة » .

ويعني الأستاذ بقلة التنوع وضيق الدائرة أن أديب العربية المعاصر يشاء أن يجمع في نفسه كل مظاهر الأدب التي لا يتمكن العبقري الفذ أن يتجه بكل ما في نفسه من استعداد وكفاءة إلى مظهر واحد. فإذا بأديب العربية المعاصر بعد تلك المحاولة لا يجيد التعمق في مظهر وإنما يكتب في كل المظاهر.

فالمتنبي شاعر وابن الرومي شاعر والمعري شاعر، ولكل منهم اختصاص في مظهر يتفوق فيه، وتراه في كل ما تفيض به نفسه ممتزجا بذلك المظهر، معبرا عن ذلك المظهر؛ أما شعراؤنا اليوم كشوقي وحافظ وأضرابهما فوتيرتهم واحدة وأنغامهم واحدة، فلا تلمس في أشعار شوقي فكرة بارزة كما تلمس القوة في شعر المتنبي، وحب الحياة والكلف بها في شعر ابن الرومي، والفكر الفلسفية العميقة الممزوجة بالتشاؤم المرح التي توجد في شعر أبي العلاء، ذلك أن هؤلاء القدماء كانوا يستوحون فكرتهم في الحياة من تجاربهم لا من الكتب، فكان أدبهم معبرا لحياة الأفذاذ العميقة الغور؛ أما المعاصرون من أدبائنا فأدبهم مستمد من مطالعتهم وهم في حجرة البيت يكتبون على وتيرة من سبقهم لا يكلفون أنفسهم عناء التفكير ولا مجهود التعمق.

وهكذا أصبح أدبنا المعاصر صورا متقاربة، متداخلا بعضه في بعض، ضيق الدائرة، غير مختص كل أديب بناحية من نواحي الحياة الواسعة حتى يستطيع أن يصورها بمهارة ويستطيع أن يسيطر عليها سيطرة إنتاج وتحليل.

ثم هذه الأمم العربية كيف توحد مثلها الأدبية، ومقاييسها الفنية، وكيف ترتبط ارتباطا متينا، وتؤدي واجبها للحياة الإنسانية، وللفكر الإنساني، كما أدته في عصر مضى، ما هى

الوسيلة الفعالة لذلك حتى يبادر إليها محبو التقرب بين أجزاء العالم العربي؟ هذا ما تفضل الأستاذ العقاد فأجابني عنه بقوله:

« الوسيلة الوحيدة العملية هى انتشار الطباعة وتيسير أسباب النشر والإذاعة في أنحاء هذا العالم العربي حتى يشعر المؤلف في القاهرة أنه يكتب للقارئ في المغرب والعراق وجميع أنحاء هذا العالم، وأنه يستفيد الفائدة المادية المضمونة للمؤلفين في الوطن الواحد فضلا عن الفائدة الروحية والثقافية. وخلاصة القول في هذا إن إصلاح النشر والإذاعة هو أهم الوسائل التي يجب أن يشتغل بها محبو التقرب بين أجزاء العالم العربي؛ ولا بأس بعد ذلك من عقد المؤتمرات الأدبية والعلمية في عواصم هذا العالم من حين إلى آخر كى يشهدها رجال الأدب والثقافة، ويفصح كل منهم عن وجهة نظره ومبلغ الحضارة والترقي الفكري في بلاده، فتحصل كل منهم والتجاوب الروحي بهذه الوسيلة ».

وبعد هل تراني استطعت أن أرسم صورة عن المدرسة العقادية؟ ...

لعله من الخير لي وللقراء أن أكتفى بهذه الكلمة لأحيلهم على ما أنتجه الأستاذ وما ينتجه من أدب رائع، ليعتكفوا على دراسته وتذوق ما فيه من جمال وسمو؛ فكل لفظ - كما يقول أديب في مجلة « المقتطف » الغراء - في عبارته له قيمة الأرقام الحسابية الدالة على العدد، وإنها لمعجزة أن تكون هذه الدقة الحسابية مفرغة في قالب من جمال الفن السامي.